المقدمة

جاء اختيارنا فى الكتابة عن « تشارلس ديكنز » بعد روية وطول أناة . . وكان ذلك منذ عام مضى ، حاولنا أن نجمع إبانه كل ماخطه يراع كتاب اوربا وامريكا عن المصلح الاجتماعى الكبير . فعثرنا على مجموعة نادرة من الحقائق والمتناقضات فيما كتب حول الرجل ، إما عن جهل مطبق أو عن علم غزير بشخصيته فآثرنا أن ننتقى المراجع التى كتبها اصحابها عن علم ومعرفة ، ونهمل تلك التى كتبت عن جهل غرير ، يغرى الانسان على الضحك بعقلية أصحابها لغفلتهم وامعانهم فى الاحتيال والاختلاق والتمحل .

واختيارنا لشخصية ديكنز بالذات لم يأت ايضاً إلا عن طريق سببين مباشرين ألا وهما : إن ديكنز لم ينفخ فى بوق الاستعمار الممقوت مرة ! أو قدم الضحايا الدسمة لإله الاستعمار المرذول ، بل على الضد أظهر معايب الانجليز وفساد مجتمعهم ، وضعف خلقهم ، وما يسيطر عليهم من أنانية مطلقة وحب للذات غرير .

فوالله ان انجلترا اليوم لفى أشد الحاجة الى وجود كاتب مثل ديكنز بين ظهرانيها يلهب ظهرها بالسياط ، لما يكتشفه من مدى أنانيتها وقد انتعشت وتوشجت أعراقها ، منذ أن ودع هوا الحياة فى الوقت الذى بدأ فيه الأسد البريطانى ينشب مخالبه السامة فى الشرق ، ومن ورائه مروضوه يلهبون فيه الحماس ويمنونه بأوفر الغذاء ، وطول الإقامة ، وحياة الرخاء .

والسبب الثانى الذى حدا بنا الى الكتابة عن ديكنز هو مكانته المرموقة

فى الأدب الانجليزى عامة . وتأثيرها على تيارات ذلك الأدب وعلى مجرى سير التاريخ وحوادثه . وحاجة المكتبة العربية وطـــلاب الأدب الى الوقوف على الدور الذى لعبه ديكنز فى تاريخ الرواية على وجه أخص . فقد جاهد جهاد الأبطال وكرس وقته الثمين فى إخراج الرواية تلو الرواية وهدفه الأسمى فى كل كتاب أخرجه أن يحث الناس على مساعدة بعضهم البعض ، وبث روح الإخاء والمحبة والمسالمة فى كل نفس حية تعيش بعيداً عن المطامع الجشعة والأهواء الفانية .

هذه الروح العظيمة السامية هى روح القرن التاسع عشر بأكمله ، أو روح العصر الفيكتورى على وجه التحديد . أو إن شئت فقل هى روح ديكنز وقد أثرت أكبر الأثر ،وسيطرت أكبر السيطرة على كل مرفق من مرافق الحياة الانجليزية المختلفة ، وساهمت بنصيب أوفر فى كل عمل خيرى . فقتلت عناصر الرجعية البغيضة ، ولو إلى حين ، وقومت مذاهبها ، ووقفت تناصبها العداء وتظهر مساوئها . ثم لا ننسى أنه كان لها أكبر الأثر فى الحد من نفوس الثوار ، فقتلت جرائم الثورة أو عدواها من فرنسا إلى انجلترا فماتت الجراثيم قبل أن تعبر بحر المانش، وتزحف بجحافلها منـــه إلى نفوس الانجليز . . .

هذا كاتب ممتاز من كتاب العالم أجمع ، يشهد له العالم الحديث وسيشهد له العالم فى كل جيل وفى كل قطر بقوة براعه وحيويته ،وسيطرته على النفوس، وخلود كتابته، بشتى روائع مأثره على صفحات تاريخ الأدب الأنجليزى من آيات بينات ونفحات خالدات لا شك فى خلودها . . .

هذا أديب كبير من خيرة أدباء العالم . وعالم رفيع وسيكلوجى ماهر أمكنه أن يتغلغل فى طوايا النفوس البشرية ، ويتسلل إلى اعماقها يبحث وراءها ويعمل على تقويمها . فجمع بين ناحيتين هامتين لم يجمع بينهما من قبله أو من بعده كاتب أو أديب. نقول جمع بين ناحيتين أساسيتين ، ألا وهما : ناحية الهدم وناحية البناء . . .

إنه يهدم ويبنى ، بينما غيره كما يشهد لنا التاريخ الآن ويشهد لنا العصر الحديث أيضا إما أن يبنى وإما أن يهدم ... ولكن كاتبا يجمع بين الناحيتين فهذا نادر وقليل . . .

ولقد طرقنا في عرضنا لتاريخ ديكنز ناحيتين هامتين أيضاً ألا وهما ناحية التعرض لسرد تاريخ حياته سرداً صادقاً لا تحيز فيه للكاتب نفسه . أو تهجما عليه في ناحية ما . فنحن كعادتنا نتجرد من عقيدتنا ونلقى بها جانباً ، ونخرج لجمهور القراء الرجل على حقيقته ، بمساوئه وحسناته . وهذه رسالة المؤرخ والأديب الحق ، وذلك لإظهار نواحى ضعفه وقوته ليلم القارىء بنواحى العبقرية ، ويبحث معنا فى هذه العوامل الخطيرة التى صقلته ، وخلقت منه عالما جليلا وكاتباً من الطراز الأول . . .

وحياة الكتاب الانجليز كما يعلم الجمهور فى مختلف العصور ، حياة لا تخلو من حبهم لتمجيد بلدهم ، والاسراف فى هذا التمجيد حتى يكاد يصل إلى درجة العبادة أحيانا . .

ونحن فى عرضنا لحياة ديكنز يظهر لنا كما ظهر لغيرنا من الكتاب الذين كتبوا عنه كتبا مطولة ، كاتبا ألمعيا مثالياً إلى درجة بعيدة ، يبحث عن الحقيقة ويسعى وراء أهدافه ليصل إلى ما يريده لخير المجموع وخير الأفراد . . . والناحية الثانية التى طرقناها فى عرضنا لتاريخ ذلك الرجل العظيم أننا حللنا رواياته تحليلا لا نريد أن نقول عنه إنه تحليل دقيق ، ولكننا جد متأكدين من أننا قد قمنا بواجبنا من الناحية التى يملها علينا الضمير ، فتعرضنا لسرد تاريخ رواياته ، والأسباب التى بموجبها كتبها ، والدواعى الخاصة والعامة التى دعته إلى الكتابة عنها . . .

كان ديكنز يستلهم الوحى من سير وعبر حياته الخاصة . فنراه فى كل رواية كتبها يستقى وحى الهامه من الحوادث التى تمر به . فيذكرنا فى كل رواية كتبها بفترة هامة مرت بتاريخ حياته . ويصور لنا بريشته البارعة

قسوة ما لاقاه أيام صباه وشبابه من مآس يصرع أمامها أقوى الرجال بطشا. وأقواهم شكيمة وصبراً . . .

إنه رجل خالد . أمكنه أن يصارع الزمن ويتحدى القدر ، ويقهر العالم بقوة ارادته الفولاذية .

قاسى ديكنز آلام المرض والجوع والعرى فى صباه وهو راض مرتاح البال مطمئن الفؤاد ، غير هياب أو وجل فكون نفسه وخلقها خلقاً فأبدع وأجاد .

أين هو ذلك العبقرى الذى كافح مثلما كافح ديكنز ، وجاهد فى سبيل رسالته ولاقى من العسف وسوء التقدير مثلما لاقى ديكنز ؟

بل أين هو ذلك العبقرى الذى صمد الزمن وتحداه فى جرأة ؟

إنه فرد واحد واجه العالم بأسره . فخر له العالم بأسره سجداً . . وركع أمامه كأنه يركع أمام إله أنقذه من موبقات وبلايا . . . .

هذا هو إذن تشارلس ديكنز ، نقدمه إلى قراء العربية كاتباً وأديباً وروائياً وعبقرياً لم تشهد الاجيال أخاً له . . .

تدعونا هذه العوامل جميعها على الخوض فى سرد قصة حياته ، وخيرما نقدمه إلى مكتبتنا العربية هذا العام ، مجلداً يحوى تاريخ ديكنز . فجمهور القراء فى هذا العصر يهمه أن يقرأ تاريخ فترة السلام التي نعم بها القرن التاسع عشر فى إنجلترا إن لم نقل فى أوربا وأمريكا . ويقف على آراء ديكنز فى الانجليز عامة . وما اكتشفه فيهم من سوء النية والجشع المطبق ، فهاب بهم أن ينزعوا إلى معرفة الخالق القهار فهو أقهر وأبطش منهم . وظل طول حياته يبرز مساوئهم ويدعوهم إلى محبة بعضهم البعض ، والسمو بالخلق الى مرتبة الكمال . ولكن انى لشعب ، تسممت عروقه ، أن تنفع فيه أقوال ديكنز أو غير ديكنز فما كاد يطوى آخر صفحة من صفحات حياته حتى عادت

انجلترا إلى سيرتها الأولى : الاغتصاب والقهر . . حقا ، إن الطبع يغلب التطبع ! ! . . »

والعالم اليوم يعود فيرقص ، كما رقص من سنوات ، على فوهة بركان . فما أجدرنا بسلام نحيا فيه حياة الهدوء ونقرأ فيه ويقرأ معنا أولادنا روايات ديكنز التي تحث على المحبة والسلام . .

وما أجدرنا بكتابة خالصة منبعثة من اعماق نفس طاهرة يهمها في كثير أن تقوم من روح العصر ، وتهذب من نفوس الناس والنشء ، وتخلقهم خلقا جديداً ، بشتى ماتنفث فيهم من آيات العظة ، وحب الناس ، ومساعدة البعض للبعض . . .

ما أجدرنا بعالم خال من الشوائب والأكدار ، صاف كالبلور لا تعكر صفاءه شائبة . . .

ومع هذا فلسنا ندعي بأن القرن التاسع عشر بأجمعه لم يسلم من مساوى الثورة أو لم تبذر فيه بذورها . ولكننا نقول إن الله قيض للقرن التاسع عشر رجالا عملوا على الهبوط بمقياس الثورات والانقلابات ، وتغيير وجهات الثورة والتغلب على ناحية أهم تعود على المجموع بخير وفير .

فتاريخ الانقلاب الصناعي فترة شهدها ديكنز ، وعاش في جوها ، وكان من دواعي اغتباطه بمشاهدته هذه الفترة أن تجسمت أمامه مشاكل اجتماعية خطيرة ، عمل على دراستها بشتى ما اودعته فيه العبقرية ، وما كمن في نفسه من قوة لمحاربة مانشأ عن هذه التطورات من اخطار هددت كيان السلام وكادت تصدع أركان الأبراطورية لاسيما إبان الثورة الفرنسية !.

يجد القارى كما أسلفنا القول بحثا وافيا في العوامل التي خلقت ديكنز . وكلنا سوف يرثى لحاله في بدء حياته ، ولكن مما لاشك فيه اننا جميعاً سنقف بجواره بل وأمامه ، نشهد له بالعظمة والقوة والخلود .

إنسان واحد أمكنه بصبره وجلده وقوة إرادته أن يغير صفحات من التاريخ.

وإنسان واحد أمكنه أن يرتفع بالأدب الى أعلى ذروة عرفها تاريخ بلد بل تاريخ أمة من أمم العالم !

وقد حاول لنا جهدنا أن نبسط من تحليل رواياته تحليلا يسير معنا القارىء فيه من غير سأم أو ملل . .

ولا يسعنا آخر الامر إلا أن نقول :

هذا كتابنا فاشهدوا لنا أو علينا ! . .

القاهرة فى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٧

سهام ساويرس

ميشيل نكلا

obeikandl.com

الملكة فيكتوريا

obeikan.com